العقل في الإسلام. مفهومه، قيمته و دوره

الأستاذ / لخضر شكير
باحث دكتوراه

Raison on islam : its concept, its value and its role.

Abstract :

Philosophers and scientists are in diffrence about essence of raison, as well as they are in diffrence about its role and its fields ; on essence of raison some of them considered it as a core, some others considered it just an accident or characteristic of the core, and some others considered it as a function among other functions of brain, and an accident of corp.

Ancient Greeks considered raison as a core, and because of that they sacred it and make it as an establisher of

knowledges, and more of that they defined man as a raisonable animal.

Some others of muslims, despossessed raison its role, and they standing to theire desires, legends an myths.

But the majority of muslims (sunnits) taking the middle (right) position about raison ; they never sacring it, as soon as they never polluting it, but they gave raison its degree as soon as its limits, and they taking the whole role and important to (wahi) quran, and the role of raison is just detectating, descovering, criticizing and undrestanding of quran, as well as reality, and this is the right role of the raison on islam.

مقدمة:

لقد كثر الحديث و الجدل عن العقل في ماهيته ودوره في الحياة الإنسانية منذ اليونان –على الأقل– إلى يوم الناس هذا، وهل هو شيء مستقل بذاته قائم في النفس البشرية جوهرا ثابتا غير متغير، أم هو صفة من صفات الإنسان، مميز به، وهو ملكة من ملكاته المختلفة. وما قيمة هذا العقل الذي ميز الله به بني البشر؟

وما هي الدرجة التي يتبوؤها في حياة البشر عموما وحياة المسلم على الخصوص؟ ثم ما دور هذا العقل المركب في الإنسان؟ وأي المجالات يخوض فيها؟ وما هي الميادين التي يعجز فيها؟ وما هي الحدود التي يقف عندها؟.

كل هذه الأسئلة وغيرها نحاول الإجابة عنها في هذه الورقة المتواضعة، متبعين الخطة التالية:

أولا: في ما هية العقل، وذكرت فيه تعريف العقل لغة و اصطلاحا، من لدى اليونان (أرسطو على الخصوص) ثم الفلاسفة المسلمين، ثم علماء الكلام ثم المتصوفة، وكثير من العلماء غير الفلاسفة.

ثانيا: في العقل و دوره في الكتاب و السنة، وفيه الحديث عن:

- مجالات الدين ومجالات العقل.
- الشريعة و التسليم
- العقل ووظائفه في الكتاب والسنة.

ثم خاتمة أبرزت فيها أهم شيء ورد في هذه الورقة.

وأسأل الله العلي العليم أن يوفقني لإفهام ما أوردته من هذه الورقة، وأن يجعلها عملا خالصا عنده متقبلا من لدنه، وأن ينفع به طلاب الحقيقة ومريدي اليقين.آمين.

I- في ما هية العقل

1- تعريف العقل:

أ- لغة: هو مصدر عقل تعقل عقلا، ورجل عاقل: هو الجامع أمره ورأيه. ومأخوذ من عقلت البعير، إذا جمعت قوائمه.

وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذ من قولهم: قد اعتقل لسانه، إذا حبس ومنع الكلام.

والعقل التثبت في الأمور .

والعقل: القلب، و القلب: العقل

وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يحبسه.

وقيل: العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان عن الحيوان.

ويقال: لفلان قلب عقول، ولسان سؤول، وقلب عقول : فهم.

وعقل الشيء يعقله عقلا، فهمه[1].

وفي القاموس المحيط: العقل هو: العلم بصفات الأشياء من حسنها أو قبحها أم العلم بخير الخيرين وشر الشرين[2].

ومن هذه المعاني السابقة نصل إلى أن علماء اللغة قد ساروا مع التطور اللفظي لمعنى العقل، حيث أشاروا إلى الدلالة اللغوية بجانب الدلالة المعنوية والوظيفية والأخلاقية للعقل، فشملت هذه المعاني جانبين:

- جانب نظري: وهو الفهم والإدراك والعلم.
- وجانب علمي: في مجال الأخلاق، وهو التمييز بين الخير والشر وحبس النفس عن الهوى.

وفي كلا الجانبين لا بد من الإمساك والضبط، سواء الضبط العلمي أو الذهني، بجانب الضبط الأخلاقي[3].

ب- اصطلاحا:

- عند أرسطو: يقرر أرسطو أن العقل:

"عبارة عن جوهر قائم بالإنسان يفارق به الحيوان ويستعد به لقبول المعرفة". وهذا التعريف هو الصورة التي انتقل بها إلى شعب المعرفة الإسلامية[1]. ويرى أرسطو

---

[1] – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، مادة (عقل).

[2] – الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مطبعة دار السعادة، القاهرة، 1913، (18/3).

[3] – ينظر، فاطمة إسماعيل محمد، القرآن والنظر العقلي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1 1993، ص 49-50.

أن العقل نوع من النفس، يقبل المفارقة عن البدن كما ينفصل الشيء الخالد عن الشيء الفاسد، وهو متقدم في الوجود على البدن، وهو وحدة في مقابل النفس الأخرى يأتي في الجنين من الخارج، وهو وحدة الشيء الإلهي[2]، ويظهر أنه يولد فينا جوهرا ما، تام الوجود وأنه لا يفسد، وهو بذاته غير منفعل، وهو غير متحد بالبدن، وهو أحد الموجودات المعقولة[3].

ويظهر تأثر أرسطو بأستاذه أفلاطون (ت 327 ق م) عندما أقام هذا الأخير فلسفته كلها على الماهيات العقلية، التي عرفت لديه بالمثل، وهذا أرسطو يقيم هو الآخر فلسفته بشكل أساس على هذه الماهيات العقلية، والتي عرفت من خلال نظريته في (الصورة).

وهذا الاتجاه الميتافيزيقي النظري في الفلسفة اليونانية في عهدها الأول تميز بكونه اتجاها عقليا مجردا من كل أثر غير عقلي، فالعقل هو مقياس لذاته، وهو سند يقينه فلا حاجة للتدليل عل صدق قضاياه إلى أدلة خارجية عن دائرة ذاته، وهو وحده كاف لتحصيل العلوم والمعارف في شتى أشكالها وضروبها.

– نقد العقل بالمفهوم الأرسطي:

إن مفهوم العقل عند أرسطو – والفلسفة اليونانية في ربيعها عموما — يجعل منه جوهرا، أي شيئا ينزل منزلة الذات، بينما الصواب أن يكون العقل فعلا من

---

[1] – ينظر، طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، طبعة 2000.

[2] – أرسطو، كتاب تكوين الحيوان، (نقلا عن فاطمة إسماعيل محمد، مرجع سابق، ص 54).

[3] – محمد عبد الهادي أبو ريدة، رسائل الكندي الفلسفية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1950، ص 333 من التحقيق.

الأفعال وسلوكا من السلوكات، بل أن يكون أول الأفعال على الفاعلية وعلى أوصافها، وبيان ذلك من الوجوه الثلاثة الآتية:

1) أن العقل يدخل في باقي الأفعال الإنسانية، فمثلا المبصر يبصر وهو يعقل في بصره، والسامع يسمع وهو يعقل في سمعه، والعامل يعمل وهو يعقل في عمله.

2) أن العقل قد يحسن ويقبح كما تحسن وتقبح الأفعال، فيحسن إذا سلك بصاحبه مسلك المعرفة الحقيقة، ويقبح إذا انحرف عن جادة المعرفة وأوقعه في مظان الشبهات والأهواء.

3) أن العقل يقبل التحول والتغير كما تقبلها الأفعال، فبالإمكان توجيه الفعل العقلي و التأثير فيه، بحيث يخرج من وصف عقلي إلى وصف عقلي آخر وأفضل منه.

ومن جهة ثانية فإن مفهوم أرسطو للعقل يقسم الإنسان إلى أقسام مستقلة ومتباينة، ذلك أن تخصيص العقل بصفة الذات يجعله منفصلا عن صفات أخرى للعاقل تشارك في تحديد ماهية الإنسان، كالعمل والتجربة، فلو جاز التسليم بجوهرية العقل على طريقة اليونان، لجاز التسليم بجوهرية العمل وجوهرية التجربة، فيكون العمل هو الآخر ذاتا قائمة بالإنسان، كما تكون التجربة ذاتا قائمة به، مثلهما مثل جوهر العقل. ولا يخفى ما في القول بتعدد الذوات القائمة في الإنسان من مجانبة للصواب، لأنه يتجاهل حقيقة وحدة الإنسان في تكامل أوصافه وتداخل أفعاله[1].

على أن الأمر في شأن العقل لم يبق على هذا النحو، عندما اختلط الأمر لدى المفكرين القدامى، إبان خريف الفكر اليوناني، ذلك أن هذا الاتجاه العقلي كان

[1] – ينظر: طه عبد الرحمن، المرجع السابق.

قد شهد –خلال هذه الحقبة– تقهقرا نسبيا، عندما تحول الفكر باتجاه الأفلاطونية المحدثة، والتي سيطر عليها غنوص الشرق، فإذا بالعقل الفلسفي المجرد يفقد الكثير من سلطانه، وإذا بالاتجاه الروحي يحقق الكثير من التقدم وربما الغلبة.

وجاء فلاسفة الإسلام متأثرين بالاتجاه الأول، مقدرين الاتجاه الثاني، ملتزمين بدين الإسلام، فوقعوا – وهم في حدود مثلث (الفلسفة الخالصة– الأفلاطونية المحدثة – الإسلام)– في أخطاء أساسية، من خلال عمليات التوفيق التي حاولوها، وكان على رأس هذه الأخطاء، الخلط بين نظرية العقل لدى اليونان من جهة، ونظرية العقل في الإسلام من جهة أخرى، وبين النظريتين فرق كبير، كما لاحظ ذلك ابن تيمية في كتابه " الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان"[1].

عند فلاسفة الإسلام:

إن فلاسفة الإسلام يصرحون بأن العقل يقال على أنحاء كثيرة، وجميعهم متفقون على أن الناس اختلفوا في حد العقل و حقيقته:

– ابن سينا: يعرف العقل في الرسالة الرابعة "الحدود" ضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، فيقول:

العقل اسم مشترك لمعاني عدة:

– فيقال عقل لصحة الفطرة الأولى في الإنسان، فيكون حدّه أنه قوة بها يوجد التمييز بين الأمور القبيحة والحسنة.

– ويقال عقل لما يكسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية، فيكون حده أنه معان مجتمعة في الذهن، تكون مقدمات تستنبط بها المصالح والأغراض.

[1] – ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن و أولياء الشيطان، دار البعث، قسنطينة، ط 1987، ص 68-69.

– ويقال عقل لمعنى آخر، وحدّه أنه هيئة محمودة للإنسان في حركاته وسكناته وكلامه واختياره[1].

ومما سبق نجد أن الفيلسوف المسلم حين يتكلم عن العقل فهو يذكر جميع المواضع التي ذكرت فيها استعمالات العقل بحسب ما يقتضيه المقام من ناحية الفعل أو الوظيفة أو الدرجة في عملية التعقل، وذلك لكي يقف على كل ما قيل حول العقل، لكي تكون نظرته للأمور نظرة خاصة، "فنجد مثلا ما يتعلق بالعقل الفعّال عند الفارابي وابن سينا أنه عقل مفارق ومبدأ فاعل مؤثر في العقل الإنساني وفي غيره، ولكن ليس المبدأ الأول لجميع الموجودات، لأن المبدأ الأول هو الإله نفسه"[2].

– العقل عند المتكلمين:

– عند المعتزلة:

لا شك أن الصراع الفكري الذي قام بين النصيين من أهل السنة (أهل الحديث) وبين العقليين من المعتزلة، قد أعطى أبعادا علمية وموضوعية أثرت الفكر الإسلامي، وبعث فيه الحيوية والنشاط، مع محاولة كل جانب أن يستند إلى القرآن في منهجه، مما جعل التأويل الدقيق لآيات القرآن عملا جليلا، لأنه جعل من تفسير المفردات اللغوية في القرآن على ضوء المنطق والفلسفة علما خاصا قائما بذاته، ينسب إلى علم الكلام تارة وإلى علم التفسير تارة أخرى.

---

[1] – ينظر، الغزالي، معيار العلم في فن المنطق، دار الأندلس، بيروت، ط4 1983، ص 162-164، ابن سينا، تسع رسائل في الحكمة و الطبيعيات، الرسالة الرابعة في الحدود، دار العرب، القاهرة، ط2 1989.

[2] – الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2 1978.

لقد وصف أبو الهذيل العلاف (ت 226هـ) العقل فقال: منه علم الاضطرار الذي يفرّق الإنسان به بين نفسه وبين الحمار، وبين السماء وبين الأرض، وما أشبه ذلك، ومنه القوة على اكتساب العلم.

وقال الجبائي (ت 303 هـ) العقل هو العلم، وإنما سمي عقلا لأن الإنسان يمنع نفسه به عمّا لا يمنع المجنون نفسه، وإنّ ذلك مأخوذ من عقال البعير[1].

ويعرّف القاضي عبد الجبار العقل في المغني بقوله: " اعلم أن العقل هو عبارة عن جملة من العلوم مخصوصة، متى حصلت في المكلّف صحّ منه النظر والاستدلال والقيام بأداء ما كلّف به"[2].

إن مسؤولية الإنسان عن أعماله كانت مدار الخلاف بين المدرسة النصية والمدرسة العقلية، وحولها جرى جدل علمي كبير، وكانت بداية استناد المعتزلة إلى العقل، وأجمعوا أن الله خلق قدرة في العبد يخلق بها أفعال نفسه، "فالإنسان في نظر المعتزلة فاعل مختار حر الإرادة، يتصرف بهذه القدرة التي منحتها إياه العناية الإلهية كما يشاء ويوجهها حسبما يريد، ويستغلها في أفعاله"[3].

"واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع، والحسن والقبح يجب معرفتها بالعقل، واعتناق الحسن، واجتناب القبيح واجب

---

[1] – الأشعري: مقالات الإسلاميين و اختلاف المصلين، المكتبة العصرية، بيروت، 1990، ص 480.

[2] – القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد و العدل، تحقيق: محمد علي النجار و عبد الحليم النجار، (375/11).

[3] – ابن حزم، الفصل في الملل و الأهواء و النحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، 1985، ص 45.

كذلك، وورود التكاليف ألطاف البارئ تعالى، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام امتحانا واختبارا "ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة"[1].

ولكن المعتزلة بالغوا في تقدير العقل، واستخدموا سلطة الخليفة في فرض آرائهم على الناس، حتى قامت في وجههم حملات شديدة يقودها أهل الحديث من جهة، وعلى رأسهم الإمام أحمد وبعض كبار المتصوفة وعلى رأسهم الحارث المحاسبي وأمثاله من جهة أخرى[2]. أما المحاسبي فقد أنشأ كتبا في ذلك منها كتاب "العقل وفهم القرآن"، فلقد كتب هذا الكتاب ردا على المعتزلة، لما رأى من نزعتهم العقلية طغيانا لا يتناسب ومقام العبودية، ورآهم يحكّمون العقل في القرآن ويجعلونه مسيطرا على النص، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد في الحقيقة هو العقل لا الوحي[3].

العقل عند الأشاعرة:

يمثل الأشاعرة الاتجاه الكلامي لأهل السنة والجماعة، وإن عدّهم بعضهم فرقة مستقلة. وهذا تعريف العقل عند بعض الأعلام:

– يعرفه أبو الحسن الأشعري بقوله:"العقل هو العلم"[4]، واحتج بأنه ليس غير العلم، وإلا جاز تصور انفكاكهما، وهو محال، إذ يمتنع عاقل لا علم له أصلا، أو عالم لا عقل له[5].

ونرى في تعريف الأشعري للعقل أنه يركز على الغاية وهي تحصيل العلم.

---

[1] – الأنفال/43: ينظر ابن حزم، المصدر نفسه، الموضع نفسه.

[2] – الجوزو، محمد علي، مفهوم العقل و القلب في القرآن و السنة، دار العلم للملايين، بيروت، ط2 1983، ص 157.

[3] – المصدر نفسه، ص 159.

[4] – مقالات الإسلاميين، مصدر سابق، ص 481.

[5] – عضد الدين الإيجي، المواقف في علم الكلام، ص 146.

– وقال الباقلاني: العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات[1]. وبه قال الجويني في الإرشاد[2].

وبذلك يتضح أن الباقلاني والجويني يركزان على قدرة العقل على التمييز بين الأشياء والحكم عليها، أي على الوظيفة وتطبيقها على الأحكام العقلية التي تستند إلى العلوم الضرورية[3].

العقل عند المتصوفة :

– عند الغزالي: يعتبر العقل غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف من القلب به، ومن ناحية يتأثر بالاتجاهات الفلسفية في تقسيمه إلى أربعة أقسام، بعضها يذكر فيه التعريفات الآتية :"العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات"[4]، وإنه "بعض العلوم الضرورية"[5]، ثم يصور العقل بأنه "ملك في مملكة البدن"، وهو يعدّه موطن التكليف ومناط المسؤولية عندما يسند إليه معرفة عواقب الأمور، والإقدام على الشهوة والإحجام عنها[6].

أما عن شرف العقل فيقول:"اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى الكلف في إظهاره، لاسيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟".

---

[1] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005،(370/1).

[2] – الجويني، الإرشاد ... ، ص 15–16.

[3] – فاطمة إسماعيل محمد، المرجع السابق، ص 52.

[4] – و هذا تعريف الباقلاني السابق.

[5] – و هذا تعريف الباقلاني، و شبيه به تعريف القاضي عبد الجبار السابقين.

[6] – الجوزو، المرجع السابق، ص 168.

ثم يقول:"فشرف العقل مدرك بالضرورة، وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه، وقد سماه الله نور في قوله تعالى: «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة»[1]، وسمي العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة، فقال تعالى: « و كذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا»[2].

– **عند الحارث المحاسبي**: يعد الحارث المحاسبي ممثلا للاتجاه الصوفي، "وقد استشهد في كتبه بكثير من أحاديث العقل، ومنها:"**أول ما خلق الله العقل** ... "[3]، فهو لذلك يعد مؤيدا لوجهة النظر التي تقول بتفضيل العقل، مع التزامه الأدب الصوفي في حضرة الله عز و جل، إذ يجعل كل معرفة تكون بان يعقل الإنسان عن ربه و يفهم عنه[4]. يقول: "لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان عقله، وجوهر العقل التوفيق، وكل زاهد زهده على قدر معرفته، ومعرفته على قدر عقله، وعقله على قدر قوة إيمانه".

---

[1] – النور/35

[2] – الأنعام/122، ينظر: إحياء علوم الدين،(88/1).

[3] – تمام الحديث: "أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فاقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال الله عز و جل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك، بك آخذ، وبك أعطين وبك أثيب، وبك أعاقب". قال العراقي: الحديث في معجم الطبراني الأوسط، من حديث أبي أمامة، وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين. وسئل ابن تيمية في هذا الحديث فأفتى بأنه كذب موضوع عند أهل العلم بالحديث، كما ذكر ذلك أبو حاتم الرازي وابن الجوزي وغيرهما. أما المرتضى الزبيدي فقد أراد أن يصحح الحديث فقال : فهذا كما ترى سند جيد (بعدما ذكر السند). فقول الحافظ العراقي: وبالجملة فطرقه كلها ضعيفة محل تأمل، و كذا إيراد ابن الجوزي له في الموضوعات، و تبعه ابن تيمية والزركشي و غير هؤلاء. فغاية ما يقال فيه: إنه ضعيف في بعض طرقه"، ينظر: إتحاف السادة المتقين، (455/1)، عن : الجوزو، مرجع سابق، ص 140-141.

[4] – الجوزو، المرجع نفسه، ص 159.

وهكذا نرى المحاسبي يدعو إلى ربط العقل بالإيمان، مع اعتبار العقل جوهر الإنسان[1]. ويروى عنه أن العقل غريزة[2]، و يعده وسيلة المعرفة. فيقول:" هو غريزة وضعها الله سبحانه وتعالى في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية، ولا بحس، ولا ذوق ولا طعم، وإنما عرّفهم الله إياها بالعقل منه، بذلك العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم وما يضرهم"[3].

– عند الأمير عبد القادر الجزائري: يعرف الأمير عبد القادر الجزائري العقل فيقول: " العقل منبع العلم والمعرفة ... وهو وسيلة لسعادة الإنسان في الدنيا و الآخرة"[4]. وتجدر الإشارة إلى تأثره بأبي حامد الغزالي وغيره من فلاسفة الإسلام.

و يجعل الأمير عبد القادر للعقل حدودا، فيقول: "ولقد جعل الخالق للعقل حدودا، وقد اختلف العلماء في الحدود التي يقف عندها عقل الإنسان عاجزا، لأن هناك أمورا كثيرة لا يستطيع العقل الوصول إليها دون واسطة. بهذا النظام خلق الله سبحانه العقل، وجعل له حدودا ومراتب"[5].

– عند بعض العلماء:

---

[1] – تصدر الإشارة إلى تأثر المحاسبي لليونان، بخاصة أرسطو الذي عدّ العقل جوهرا قائما بذاته.

[2] – المحاسبي، العقل و فهم القرآن، تحقيق: حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر، ط3 1982، ص 203.

[3] – المصدر نفسه، ص 201–202.

[4] – الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد، تحقيق: الأميرة بديعة الحسني الجزائري، ضمن كتاب: فكر الأمير عبد القادر الجزائري: حقائق ووثائق، دار الفكر، دمشق، ط1 2000، ص 78.

[5] – المصدر نفسه، الموضع نفسه.

– روي عن الإمام الشافعي أنه قال :"العقل آلة خلقها الله لعباده، يميز بها بين الأشياء وأضدادها". وقد فسّر مقصود الشافعي من هذا التعريف أن العقل معنى ركبه الله في الإنسان يستعين به على التمييز[1]. وحكي التعريف نفسه عن أبي عبد الله بن مجاهد.

– وحكي عن أبي العباس القلانسي أنه قال :العقل قوة التمييز[2].

– قال السفاريني عن العقل:"هو غريزة ليس بمكتسب، بل خلقه الله تعالى، يفارق به الإنسان البهيمة، ويستعد به لقبول العلم و تدبير الصنائع الفكرية"[3].

– ويعرفه الكفوي بقوله:"العقل قوة النفس بها تستعد للعلوم و الإدراكات"[4]، ويعرفه كذلك بكونه :"مبدأ إدراك الحقائق والشوق إلى النظر في العواقب والتمييز بين المصالح والفاسد"[5].

– ويعرفه أمير باد شاه بقوله :"العقل قوة بها يميز بين الأمور المستحسنة والقبيحة"[6].

---

[1] – ينظر: الزركشي، البحر المحيط، تحقيق: لجنة من علماء الأزهر، دار الكتب، القاهرة، 1994، (84/1-85)، ابن النجار، شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي، نزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، 1997، ص 80، السمعاني، أبو المظفر، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق: محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، بيروت 1996، (27/1).

[2] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، (371/1).

[3] – السفاريني، غذاء الألباب، شر منظومة الآداب، ضبط: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت 1996، (468/2).

[4] – الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت 1993، (216/3).

[5] – المصدر نفسه، الموضع نفسه.

[6] – أمير باد شاه، تيسير التحرير: شرح كتاب التحرير في أصول الفقه الجامع بين الحنفية و الشافعية، لابن همام الدين الإسكندري، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، (247/246/2)، (31/4)، ينظر: الغزالي، المستصفى من علم الأصول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، (17/1).

– وعن القاضي عبد الجبار :"العقل عبارة عن جملة من العلوم المخصوصة متى حصلت في المكلف صح منه
النظر والاستدلال و القيام بأداء ما كلّف به"[1].

II– العقل ودوره في الكتاب السنة

1– مجالات الدين و مجالات العقل:

نزل الدين هاديا للعقل في جميع الأمور التي لو ترك العقل وشأنه فيها ظل السبيل، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة، وهذه الأمور هي:

أ– العقائد.

ب– المبادئ الأخلاقية إجمالا وتفصيلا.

ج– التشريع في قواعده العامة، وفي بعض تفصيلاته وقواعده العامة التي تتضمن الجزئيات على مر الزمن، و على اختلاف البيئات.

أما الطبيعة والكون، من سمائه وأرضه، ومن جباله وبحاره، ومن كواكبه وأقماره وشموسه، والطاقة والمادة، وأعماق البحار وآفاق السماء، إن كل ذلك قد تركه الله للإنسان يدرسه في مصنعه بآلاته وأدواته، وحثه على أن يجول في ذلك ما استطاع إليه سبيلا، حتى يكتشف سنن الله الكونية، ونواميسه الطبيعية، ويرى صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولم يحجر الدين على الإنسان في هذا المجال[2].

2– الشريعة والتسليم (عدم الاكتفاء بالعقل):

[1] – المغني في أبواب التوحيد و العدل، مصدر سابق، (375/11).

[2] – عبد الحليم محمود، الإسلام و العقل، دار المعارف، القاهرة 1985، ص 30.

يقول الشيخ أبو سليمان القفطي:"إن الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل، بوساطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي، وباب المناجاة، وشهادة الآيات، وظهور المعجزات، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه،و لا بد من التسليم المدعو إليه والمنبه عليه. وهناك يسقط (لم؟) ويتلاشي (كيف؟) ويزول (هلا) وتذهب (لو وليت) في الريح.

ولو كان العقل يكتفى به، لم يكن للوحي فائدة وغناء، على أن منازل الناس متفاوتة في العقل، وأنصباءهم مختلفة، فلو كنا نستغني عن الوحي بالعقل، كيف كنا نصنع وليس العقل بأسره لواحد منا؟ فإنما هو لجميع الناس ... ولو استقل إنسان واحد بعقله في جميع حالاته، في دينه ودنياه، لاستقل أيضا بقوته في جميع حاجاته، في دينه و دنياه، و لكان وحده يفي بجميع الصناعات و المعارف، وكان لا يحتاج إلى أحد من نوعه وجنسه، وهو قول مردود، ورأي مخذول ... "[1].

3- العقل في الكتاب والسنة:

صحيح أن الفلسفة اليونانية في ربيعها استطاعت أن تحقق للعقل استقلاله، وتمد سلطانه، وتحقق له من الإنجازات الفلسفية ما لم تحقق له فلسفة من قبل. وصحيح أن أرسطو –بشكل خاص– ومدرسته، ثم الأبيقوريين والرواقيين، كانوا قد اعتمدوا العقل المجرد المستقل في بحث موضوعات ما وراء الطبيعة، كالله والنفس و العالم، إلا أن ذلك لم يفض بهؤلاء وأولئك إلا إلى مجموعة من الآراء المتناقضة والنتائج

[1] – ينظر: إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي.

المتعارضة، تتراوح كلها بين طرفي الشك واليقين، أو النفي والإثبات[1]، ولقد فطن إلى ذلك نفر من المسلمين فعرفت هذه النتائج لديهم من خلال "نظرية تكافؤ الأدلة"[2].

على أنه مهما كان من أمر العقل لدى المسلمين، سواء من حيث خطأ بعضهم، أو من حيث التنبه لإمكان التناقض العقلي في موضوعات الفلسفة الميتافيزيقية، كما فعل الكثير من رواد الصوفية، فإن مسألة العقل في الإسلام ينبغي أن تدرس في أصولها الأولى (القرآن والسنة)، ثم من خلال بوادر الفلسفة الإسلامية، سواء عند المحققين من العلماء الفلاسفة من أمثال الغزالي، أو العلماء غير الفلاسفة من أمثال ابن تيمية، ومن أمثال الصوفية الخلّص من أمثال الحارث المحاسبي.

العقل في القرآن:

أما في القرآن فإن النزعة العقلية الإسلامية واضحة فيه تمام الوضوح، ذلك أن الآيات التي تدعو الإنسان إلى التأمل و التفكر والتدبر و الاعتناء، إنما هي آيات كثيرة، تدعو صراحة لإعمال العقل في ما خلق الله، للوصول من خلال ذلك إلى معرفة الخالق، ومتى تحققت معرفة الخالق أصبح الإنسان عارفا بأوامر الله فيتبعها، متفهما لنواهيه فيجتنبها. بالإضافة غلى هذه المعاني العقلية التي وردت في القرآن، فإن هناك ألفاظا للعقل و مشتقاته ومترادفاته وردت في القرآن صراحة أربعا و ثلاثين مرة[3]، أو تسعا و أربعين مرة[4].

---

[1] – عبد الحليم محمود، الإسلام و العقل، مرجع سابق، ص 42 و ما بعدها.

[2] – حسين القوتلي، في تحقيقه لكتاب العقل و فهم القرآن للمحاسبي، مصدر سابق، ص 115.

[3] – فاطمة محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 64.

[4] – القوتلي، مصدر سابق، ص 116.

والناظر في القرآن الكريم –فيما يتعلق بحديثه عن العقل– يجده لم يستعمل لفظ (العقل) كمصدر بالمرة، وإنما جاء النظر العقلي بمعنى استخدام العقل في التعقل، لأن العقل ليس له ماهية قائمة بذاتها –كما عند اليونان– وإنما هو عمليات عقلية صرحت بها الآيات الكريمة في مواضع كثيرة[1]، فجاءت مشتقات العقل كلها بالصيغة الفعلية (عقلوه – نعقل – يعقلها – يعقلون – تعقلون).

وحيث لم ترد كلمة (العقل) بالصيغة الاسمية في القرآن، فقد وردت مرادفات العقل بالصيغة الاسمية مثل: اللب وجمعت (ألباب)، الحلم وجمعت (أحلام)، والحجر والنهى والقلب والفؤاد وكلها جاءت بمعنى العقل. وجاءت آيات أخرى تدعو إلى إعمال العقل في النظر والتأمل والتدبر والتفكر ... والأمثلة على ذلك تربو عن الحصر، تنظر في القرآن الكريم.

وظائف العقل في القرآن:

1– تحصيل العلم والمعرفة: لقد عني القرآن الكريم بوسائل تحصيل العلم و المعرفة، وأشار إلى أنها جميعا تكمل بعضها بعضا، وكل له دوره في عملية اكتساب العلم والمعرفة، ومن هذه الوسائل:

– **الحواس و العقل**: لقد ارتبط عمل الحواس بعمل العقل، الذي هو الإدراك والتفكر والتدبر والتبصر ... في آيات كثيرة منها قوله تعالى:« ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء و نداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون»[2]، وهذه الآية تؤكد الصلة بين عمل الحواس وعمل العقل، وحين انتفى عمل الحواس وأصابها (الصمم والبكم والعمى) انتفى عمل العقل، وصفهم الله بأنهم لا يعقلون.

[1] – فاطمة محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 63.

[2] – البقرة/171.

وتظهر أهمية عمل العقل وعمل الحواس في قول الكفار أثناء العذاب في الآخرة : «لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير»[1]، وقطعا هم في الدنيا كانوا أصحاب بصر يبصرون به، ولكن البصر الذي تشير إليه الآية هو بصر إدراك وفهم ووعي[2].

– **الحواس والقلب والعقل**: كما يؤكد القرآن على دور الحواس في الإدراك العقلي، يؤكد كذلك على ارتباط الحواس بالقلب و العقل معا، بحيث تتكامل وسائل المعرفة. وجاءت آيات القلب تعبر عن وظائف مختلفة، نشير على عجل إلى ما له علاقة بعمل العقل، وذلك في قوله تعالى «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو ءاذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور»[3]، فهنا تؤكد الآية الصلة بين الحواس والقلب والعقل، فتربط بين صمم الآذان وعماية الأبصار وإقفال القلوب وانتفاء العقل، وكأن ذلك يحدث في وقت واحد[4].

2– تأكيد وجود الغيبيات:

لقد جعل القرآن الكريم للعقل مكانة كبرى في بناء العقيدة الإسلامية وتثبيت دعائمها، و ترسيخ قواعدها، و ذلك لكي تقع موقع اليقين من صاحبها، ولذلك كان اشتغال النبي صلى الله عليه وسلم بالدلائل والحجج القرآنية، ليبرهن على مسائل العقيدة، ففتح القرآن بذلك مجالا واسعا للنظر العقلي، بخاصة وأن

---

[1] – الملك/10.

[2] – فاطمة محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 84.

[3] – الحج/46.

[4] – فاطمة محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 85.

العقيدة شغلت حيزا كبيرا من آيات القرآن. قال الفخر الرازي:"إن القرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار، و تنبيه على طرق النظر"[1].

إن الإيمان بالغيب هو أول صفة للمؤمنين، وقد جعل القرآن الإيمان بالغيب قاعدة الإيمان كله، وقاعدة الحياة البشرية كلها، لأنه لا يستقيم في الواقع وجود الإنسانية بغير هذا الإيمان. قال تعالى: «ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون»[2]، والمقصود بالغيبيات هنا "كل ما لا سبيل إلى الإيمان به إلا عن طريق الخبر اليقيني"[3].

– دور النظر العقلي في تأكيد وحدانية الله:

إن قضية إثبات الوجود الإلهي لم تكن القضية الأساس في القرآن الكريم، إنما القضية الأولى هي إثبات الوحدانية لله وحده لا شريك له، وإن تضمنت تأكيد الوجود الإلهي. لقد كانت قضية التوحيد هي المعركة الأساس التي خاضها جميع الرسل، لإزالة الشرك وتعليم العباد كيف يعبدون الله الواحد، وقد تناول القرآن هذه القضية بمنهج واضح، يتضمن تصحيحا للضمائر والعقول في تقرير ما ينبغي في كمال الله، فخاطب العقل البشري بالأدلة العقلية والبراهين التي تضع التوحيد في أبهى صوره وأكملها، لتتناسب والرسالة الخاتمة، ولكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[4]. وقد جاءت البراهين العقلية الساطعة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: « ما

---

[1] – الرازي، تفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت 1983، (96/3).

[2] – البقرة /1-3.

[3] – البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر دمشق، ط 1402هـ ، ص 301.

[4] – ينظر، فاطمة محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 169.

اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون»[1].

– دور النظر العقلي في تأكيد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم:

فقد تجلت مكانة العقل و أهمية النظر العقلي في إثبات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، بمجرد جعل المعجزة المحمدية كتابا لا خارقا حسيا –كما كان الأنبياء من قبله– ثم إن هذا الكتاب نفسه (القرآن الكريم) خاطب عقول المنكرين وطالبهم أن يتفكروا في عدة أمور هي في صميمها تثبت للعقل الصحيح صدق الرسالة، وأول هذه الأمور :كون القرآن الكريم المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم، فلما وجد المشركون أنفسهم مطالبين بالنظر في كلمات الله ليشاهدوا الحق فيها، وأنها منزلة من عند الله، وأنها ليست من كلام البشر، فعند ذلك لم يأخذوا بشهادة عقولهم، وسألوا محمدا صلى الله عيه وسلم أن تنزل عليهم آيات مادية محسوسة. قال تعالى :« **وقالوا لو لا أنزل عليه آيات من ربه**»[2]. فكان رد القرآن عليهم: « **قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** »[3]. وغيرها كثير من الأدلة والبراهين، تؤكد بما لا يدع مجالا لكافر أو متشكك أو متكبر أن القرآن الكريم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الخالدة إلى الناس أجمعين، لكنهم كفروا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعدوانا.

---

[1] – المؤمنون/ 91.

[2] – العنكبوت / 50.

[3] – العنكبوت / 50-51.

– دور النظر العقلي في تأكيد البعث والجزاء:

إن البعث والجزاء ركن أساس من أركان الإيمان، لا يصح إيمان المسلم ولا تستقيم عقيدته إلا باليقين به يقينا لا ترقى إليه أدنى الشكوك ولا تخالطه أدنى الأوهام. وقد سجل القرآن الكريم ما أثير من شبهات حول إنكار البعث، و حرص على الرد عليها بالمنطق الذي يطمئن إليه العقل وتطمئن إليه النفس الإنسانية جميعها، وهو منطق الفطرة والتأمل والنظر والبصيرة، لكي لا يكون الاطمئنان وقفا على زمان بعينه أو مرتبطا بظروف وأحوال خاصة، وهذه بعض تلك الشبهات:

قال تعالى:« **وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد**»[1]، وقال: « **وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا** »[2]، وقال : « **وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد**»[3]، فرد عليهم القرآن الكريم، ووجه عقولهم إلى كيفية الاقتناع ومن ثم الإيمان بهذه الحقيقة الغيبية، وذلك بأن أرشد العقل إلى الاستدلال عنها بأمور منها: الاستدلال بالنشأة الأولى عن الآخرة، ويتقرر هذا في قوله تعالى:« **فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة**»[4]، ومن البديهي أن القادر على النشأة الأولى قادر على الإعادة، لأن "الإعادة هي المعاد، والمعاد هو بعينه المخلوق أولا"[5].

---

[1] – السجدة / 10.

[2] – الإسراء / 49.

[3] – الرعد /5.

[4] – الإسراء /51.

[5] – أبو الحجاج يوسف المكلاتي، كتاب لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول، تحقيق: فوقية حسين محمود، دار الأنصار، ط1 1977، ص 382، (نقلا عن : فاطمة محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 199).

3- دور النظر العقلي في فهم المتشابه من القرآن:

إن العلاقة وطيدة بين النظر العقلي والمتشابه في القرآن، ذلك لأن "المحكم بوضع اللغة لا يحتمل إلا الوجه الواحد، فمن سمعه أمكنه أن يستدل به في الحال"[1]، أما "المتشابه فيحتاج إلى فكر ونظر لحمله على الوجه المطابق"[2]. وقضية فهم المتشابه في القرآن كثر حولها الجدال، الأمر الذي حذا بابن خلدون مثلا إلى جعلها سببا في نشوء علم الكلام[3]، وأدى إلى ظهور الفرق، فظهرت قضية التأويل وقامت بدور كبير في إظهار علاقة العقل بفهم القرآن.

- دور النظر العقلي في الاجتهاد:

لقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاسترشاد بالعقل في مجال استنباط الأحكام الشرعية، حين دعا إلى مبدأ الاجتهاد، وسنّ لولاته في الأمصار أن يجتهدوا رأيهم حين لا يجدون نصا من كتاب أو سنة.

ورسول الله صلى الله عليه و سلم أول من مارس الاجتهاد والاستنباط برأيه فيما لا وحي فيه، فنجد ما رواه البخاري عن أبي هريرة من « أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **إن امرأتي ولدت غلاما أسود وإني أنكرته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق؟ قال: إن فيها لورقا، قال فأنّى ترى ذلك جاءها؟ قال: يا رسول الله، لعل عرقا نزعها، قال: ولعل هذا عرق نزعه**"[4]. وقد

---

[1] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت 2008، (299/2).

[2] - الموضع نفسه.

[3] - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشدادي، الجزائر 2006، ص 463.

[4] - البخاري: كتاب الاعتصام بالسنة، باب 12.

كان حديث معاذ لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضيا " هو الحجة في إثبات القياس عند جميع الفقهاء"[1].

وقد اجتهد الصحابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من الأحكام، كما في حديث: "لا يصلينّ أحدكم العصر إلا في بني قريضة ... "[2] والأمثلة عن ذلك تربو عن الحصر .

وهكذا نهج الصحابة والخلفاء الراشدون منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعليم كيفية القياس والاجتهاد وإعمال العقل وحرية الفكر. ونرى الفكر الإسلامي قد انطلق من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، التي هي تفسير للقرآن، فأصبحت الحياة الفكرية الإسلامية كلها ليست سوى التفسير القرآني، فمن النظر في قوانين القرآن العملية نشأ الفقه، ومن النظر فيه ككتاب أخروي نشأ الزهد والتصوف والأخلاق، ومن النظر فيه كلغة إلهية نشأت علوم اللغة ....[3].

وبذلك نرى أن المسلمين قد تدرجوا في طلب المعرفة منذ بداية عهدهم بالإسلام، واستمر هذا التدرج إلى أن دونت العلوم وتعمقوا في مشكلات العقيدة وأحكام الدين وغيرها من العلوم، حتى بلغوا في كل هذا مبلغ الكمال والنضج، ثم طلبوا —في هذا الطور من حياتهم– فلسفة اليونان، فترجمت لهم، وأقبلوا على دراستها وتفّهم مشاكلها، محاولين التوفيق بينها وبين الدين، فكأنهم بذلك لم يطلبوا الفلسفة إلا في فترة كانوا قد وصلوا فيها من الناحية العقلية إلى مستوى هذا التراث الفلسفي،

---

[1] – ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت، (65/2).

[2] – ينظر: ابن القيم، إعلام الموقعين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1/2003، (153/1) (227/1).

[3] – النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام.

ولو لم تتح لهم فرصة نقل هذا التراث لكان من الممكن أن ينطلق العقل الإسلامي إلى مداه فيبتكر فلسفة خاصة به، تكون ذات أصالة تامة[1].

– علاقة العقل بالنص الشرعي:

إذا كانت الغاية من خلق الجن والإنس هي العبادة، و إنما يعبد من يعرف، كانت معرفة الله (صفات وأفعالا) واجبة لأجل العبادة، ولكي يعرف الإنسان ربه حق المعرفة يجب أن يكون مهيئا لمعرفة الحقائق والأعمال، ولذلك زود الإنسان بما يمكنه من المعرفة لتؤهله هذه المعرفة لحمل الأمانة التي خلق لأجلها، فزود لذلك بالعقل و التفكير والإرادة إضافة إلى الهدى الرباني وهو الوحي.

إن أحسن أوضاع الإنسان في الدارين مرهون تحققه بتحقيق ثلاثة أمور معا هي:

– الأول: هدى من الله عز وجل، المتمثل في الوحي (كتابا وسنة).

– الثاني: إدراك هدى الله عز وجل (العقل).

– الثالث: تنفيذ الإنسان لذلك الهدى (الجسم).

أ– علاقة العقل بالنص الشرعي من حيث الماهية:

قد يبدو لأول وهلة عدم وجود علاقة للعقل بالنص الشرعي من حيث الماهية، لأن الأول غريزة مخلوقة في ذات روحية مخلوقة، والثاني كلام الله تعالى أو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تظهر العلاقة في الماهية بين وحي منزل وغريزة مخلوقة. ولكن النظر الدقيق يكشف عن علاقة بين ماهيتهما، وهي علاقة مناسبة،

[1] – محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ص 69، بتصرف، ينظر: فاطمة محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 244.

أي مناسبة غريزة العقل للنص الشرعي قرآنا وسنة[1]. وبيان ذلك أن النصوص الشرعية جعلها الله تعالى أوعية لمعان وحقائق، وعندما خلق الله الإنسان وصوره بروحه وجسده جعل في روحه غريزة تمكنه من إدراك ذلك الهدى الرباني المضمن في النصوص، وهي غريزة العقل. ولو أن الله لم يخلق في الإنسان هذه الغريزة ونزلت النصوص، لم يكن الإنسان قادرا على إدراك ذلك الهدى، ولا قادرا على تمثله والتزامه، وكان تكليفه –إذ ذاك– بالعبودية لله عبثا يتنزه عنه سبحانه وتعالى، فكان خلق غريزة العقل في الإنسان مناسبا تماما للنص الشرعي، وجعلت هذه المناسبة لتمكين الإنسان من اختبار الوضع الذي يرضاه له الله عز وجل، ويسعد في الدارين، بالرغم من قدرته على اختبار وضع آخر.

ومن المفيد أن نشير في هذا المقام إلى تهافت الاتجاهات الباطنية في تفسير النصوص، بخاصة تفسير النص القرآني، تلك الاتجاهات التي تزعم وجود معان ظاهرة يفهمها عامة الناس، ومعان باطنة لا يعلمها إلا خاصة الخاصة، وأن مقصود هذه النصوص هو المعاني الباطنة، فيذهبون في تفسير النصوص مذاهب مغرقة في الرمز والإيحاء، لا تمت إلى اللغة العربية ولا إلى العقل السليم ولا إلى مناسبة وسياق النص، ولا إلى أسباب النزول بأدنى الأواصر.

ويلحق بهذه الاتجاهات الباطنية اتجاهات تحديثية أو حداثية –على حد تعبيرهم– تريد فهم النص القرآني خاصة بمجرد العقل، العري عن ظاهر اللغة العربية التي نزل بها، وبعيدا عن تفسير السنة للقرآن ولا اعتماد أصول التفسير و قواعده التي أجمع عليها علماء التفسير والأصول. وينتهي الأمر بهذه الدعوات إلى تحريف الدين

[1] – ينظر: الشاطبي، الموافقات، تحقيق: عبد الله دراز، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، (27/3)، كذلك هامش دراز.

وتعطيل النصوص واتباع الهوى، بحجة إعطاء قراءات جديدة لنص قديم، ومسايرته مع واقع متغير، فيخضعون النص –إذ ذاك– إلى الواقع، محرفين الكلم عن مواضعه.

ب– علاقة العقل بالنص الشرعي من حيث المقصد:

إذا كان المقصد من إرسال الرسل و إنزال الكتب هو معرفة الإنسان ربه، لكي يعبد إلها يعرفه، وكان الإنسان حرا في أن يؤمن أو يكفر، إذ جاء في القرآن: «لا إكراه في الدين»[1]، وعدم الإكراه يستلزم حرية الإنسان ومسؤوليته أمام أعماله. ولما كان العقل هو الوسيلة لمعرفة الرب المعبود عن طريق معرفة خطاب الله المتمثل في القرآن والسنة، كان الهدف من العقل لذلك هو معرفة الله على غرار هدف النص الشرعي الذي هو تبيين طريق السعادة للنفس الإنسانية. فالمقصد الأسمى في النهاية للنص الشرعي والعقل واحد، وهو الوصول إلى

مقام العبودية لله حق العبادة بمعرفته حق المعرفة. قال تعالى: «واتقوا الله ويعلمكم الله»[2].

ج– علاقة العقل بالنص الشرعي من حيث الوظيفة:

وظيفة النص هي البيان: بيان الصراط السوي في الاعتقادات والأفعال والتروك[3]. والمستهدف بالنص وما فيه من البيان هو الإنسان، والمطلوب من إدراك ما في النص من البيان والانطلاق به في العمل والسلوك. ووظيفة العقل تقع في أول

---

[1] – البقرة /256.

[2] – البقرة / 282.

[3] – ينظر: ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ص 218.

خطوات الامتثال، وهي إدراك معاني البيان والحقائق التي جاءت بها النصوص، ثم تحويلها إلى عمل وسلوك، ليصل الإنسان إلى أحسن أوضاعه وخير مآلاته[1].

د- علاقة العقل بالنص الشرعي من حيث التكليف:

التكليف هو طلب الشارع من العقلاء البالغين ما فيه كلفة من فعل أو ترك. ويكون الطلب بخطاب من الشارع، وهو النص أو ما في معناه. والتكليف لا يتم إلا بأربعة أمور هي:

- التكليف الذي هو المصدر.
- المكلّف (بكسر اللام): وهو الشارع.
- المكلّف (بفتح اللام): وهو المخاطب.
- المكلّف به (وهو المطلوب).

ويظهر أن العقل يتعلق بالمكلف (بفتح اللام)، وأن النص يتعلق بالتكليف الذي هو المصدر، وبالمكلف به لأن النص خطاب التكليف وهو من أركانه الأساس. والمكلف به مضمن في النص.

وترجع علاقة العقل بالنص إلى ما اتفق عليه الفقهاء والأصوليون من اعتبار العقل شرطا في التكليف[2]، فلا يكلف إلا العاقل، لأنه هو الذي يفهم الخطاب، وقد سماه الشاطبي "مورد التكليف"[3].

6- علاقة العقل بالنص الشرعي من حيث الاختلاف و الائتلاف:

---

[1] - محمد نعيم ياسين، مباحث في العقل، دار النفائس، الأردن، ط1 2011، ص 234.

[2] - الزركشي، البحر المحيط، مصدر سابق، (1/250-249).

[3] - ينظر: دراز في شرحه على الموافقات، مصدر سابق، (3/27).

لقد تقرر عند العلماء أن الأدلة الشرعية (النصوص) لا تنافي قضايا العقول، ولا يأتي الشرع بما تحيله العقول، وإنما قد يأتي بما تحار فيه[1]. والسبب في ذلك واضح، ويبدو في أن النص وحي من الله، والعقل مخلوق من مخلوقاته، فكلاهما راجع إليه، والتناقض نقص، والله عز وجل منزه عن كل نقص.

ومن جهة أخرى فإن النصوص الشرعية هي أدلة الشارع، نصبها لتتلقاها عقول المكلفين من مخلوقاته لتلتزم مضامينها، ولو أمكن التناقض بينها لم يصح التكليف، فضلا عن أن التكليف بمقتضى نصوص مناقضة للعقل هو تكليف بما لا يطاق[2].

فلو افترض إمكان التناقض بين النص والعقل لكانت النصوص غير صالحة للتكليف بمقتضاها، لعدم تمكن العقل من التصديق بها، لأن تمكنه من ذلك مبني على كون النصوص صالحة لأن يصدق العقل بها، بأن لا تكون منافية لقضاياه[3]. وإن زعم بعض الناس أن عقله لا يصدق بما تأتي به بعض النصوص، لأن المعتبر هو تمكن العقل من التصديق، بأن تكون النصوص في ذاتها صالحة لأن يصدق بها العقل المجرد من الدوافع غير العقلية، ولا عبرة لإنكار بعض العقول المفردة لمضمون النص جهلا أو عنادا و استكبارا وانقيادا للهوى[4].

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن كثيرا من الناس الذين تحرروا من دوافع الهوى، كانوا وما زالوا يدخلون في الإسلام، لما تدرك عقولهم من جريان الشريعة على مقتضى

---

[1] – الموافقات، المصدر السابق، (31/3).

[2] – المصدر نفسه، (27/3).

[3] – المصدر نفسه، الموضع نفسه.

[4] – ينظر: دراز في شرحه على الموافقات، مصدر سابق، (27/3).

أحكام العقل، حتى قال بعض الأعراب وقد سئل: بماذا عرفت أن محمدا رسول الله؟ فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أقرّه[1].

ربما زدنا على ذلك مثالا بما كانت بعض العقول العربية في الجاهلية من استقباح لبعض المنكرات، والتي لم تكن قد حرمت بعد في الإسلام. وكان عمر بن الخطاب قبل تحريم الخمر يتشوف إلى تحريمها، لأنها تذهب كياسة الرجل، فكان من موافقاته العجيبة رضي الله عنه أن حرمت الخمر تحريما تدريجيا، حتى لا تتفاجأ النفوس مرة واحدة فتعرض مرة واحدة.

الخاتمة:

وفي ختام هذه الورقة يمكن تسجيل ما يأتي:

إن الناس قد ذهبوا في مسألة العقل مذاهب شتى، راحت بهم ذات اليمين مفرطين أو ذات الشمال مفرّطين: فأصحاب اليمين من لدن اليونان إلى الحضارة الغربية اليوم، مرورا بالمعتزلة في العصر الإسلامي الوسيط، هؤلاء ذهبوا إلى تقديس العقل وجعله جوهرا قائما بذاته، فله الحكم وله الأمر والنهي، وهو قادر على الاستقلال بالأحكام و معرفة المصالح والمفاسد، فأقاموا الدنيا وخربوا الدين والآخرة. أما أصحاب الشمال ومنهم كثير من المسلمين، فقد ذهبوا إلى تدنيس العقل، وراحوا يعطلونه عن وظائفه الأساس، فلا هم أقاموا الدين ولا هم ساسوا الدنيا. أما المسلم الوسط (العدل)، فلا هو قدس العقل ولا هو دنسه، إنما جل أمره أن يجعله آلة التفكير و التدبير ومعرفة الصالح من الفاسد، وجعله الكاشف عن الحقائق، وهو

[1] – ابن القيم، مفتاح دار السعادة، مصدر سابق، ص 579.

الفاهم للأحكام لا المنشئ لها، وهو وحده عاجز لا يستقل بالتشريع ولا بمعرفة الحقائق كلها، ولذلك كان معوزا للهادي إلى الحقائق الكلية وهو الوحي.

وهكذا واجب المسلم اليوم: تمسك بالوحي كتابا وسنة، مضافا إليه آلة التمييز والتدبير، حتى يكشف مكنونات الوحي، ولا تتناقض لديه الأحكام، ساعيا إلى إعمار الأرض، جامعا بين فقه النص والأصل فيه الوحي، وفقه الواقع والأصل فيه المصالح، لإخراج المسلم من ركام التراث، نافضا عن عينيه عصور الضباب والانحطاط، راجعا إلى صدر الإسلام أين التأم فيه النص والعقل، مقدما الأول على الثاني، جاعلا الثاني خادما للأول. ويوم افترق النص عن العقل ظهر في الإسلام فرق خرجت عن الإسلام الصحيح قليلا أو كثيرا. أما الغرب فقد أخذوا بالعقل ونبذوا الوحي وراء ظهورهم، فهم على ما وصفهم القرآن: «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون».

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1- الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصري، بيروت 1990.

2- أمير باد شاه، تيسير التحرير، شرح كتاب التحرير في أصول الفقه الجامع بين الحنفية والشافعية، لابن همام الدين الإسكندري، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

3- الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد، تحقيق: بديعة الحسني الجزائري، ضمن كتاب: فكر الأمير عبد القادر الجزائري: حقائق ووثائق، دار الفكر، دمشق، ط1 2000.

4- الإيجي، عضد الدين، المواقف في علم الكلام، شرح المواقف ومعه حاشيتا السيالكوتي والجلبي على شرح المواقف، تحقيق: محمد عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت 1998.

5- البخاري، صحيح البخاري، شركة الشهاب، باتنة، طبع: موفم للنشر 1991.

6- البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر، دمشق، 1402 هـ.

7- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، دار البعث، قسنطينة 1987.

8- الجوزو، محمد علي، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، دار العلم للملايين، بيروت، ط2 1983.

9- الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق: أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1985.

10- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت 1985.

11- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشدادي، الجزائر 2006.

12- الرازي، أبو بكر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت 1983.

13- أبو ريان، محمد على، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت،(د.ت).

14- أبو ريدة، محمد عبد الهادي، رسائل الكندي الفلسفية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1950.

15- الزركشي، البحر المحيط، تحقيق: لجنة من علماء الأزهر، دار الكتب، القاهرة 1994.
16- السفاريني، غذاء الألباب، شرح منظومة الآداب، ضبط: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت 1996.
17- السمعاني، أبو المظفر، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق: محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، بيروت 1996.
18- ابن سينا، تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، دار العرب، القاهرة 1989.
19- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت 2008.
20- الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات، تحقيق: عبد الله دراز، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
21- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2000.
22- عبد الحليم محمود، الإسلام والعقل، دار المعارف، القاهرة 1985.
23- ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)
24- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، وبذيله المغني عن الأسفار في الأسفار، للعراقي، تحقيق: سيد عمران، دار الحديث، القاهرة 2004.
25- المستصفى من علم الأصول، دار الكتب العلمية، بيروت 1983.
26- معيار العلم في فن المنطق، دار الأندلس، بيروت، ط4 1983.
27- فاطمة إسماعيل محمد، القرآن و النظر العقلي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الو.م.أ، ط1 1993.
28- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مطبعة دار السعادة، القاهرة 1913.

29- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت 2005.
30- ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1 2003.
31- الكفوي، أبو البقاء، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت 1993.
32- الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2 1978.
33- المحاسبي، الحارث، العقل وفهم القرآن، تحقيق: حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر، ط3 1982.
34- محمد نعيم ياسين، مباحث في العقل، دار النفائس، الأردن، ط1 2011.
35- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت).
36- ابن النجار، شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي، نزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض 1997.